

# OPEN ACCESS

Submitted: 6 January 2019  
Accepted: 19 April 2020

## مصطلح الفضاء: من الأصل اللغوي إلى الوضع الاصطلاحي في النقد العربي المعاصر

خالد تواتي

أستاذ النقد العربي الحديث والمعاصر، قسم اللغة والأدب العربي، معهد اللغات والآداب، المركز الجامعي النشرسي، تيسمسيلت، الجزائر

khaledtwati@gmail.com

### ملخص

نتناول في هذا البحث أحد المصطلحات من حقل السرديات والنقد الروائي، وهو مصطلح الفضاء السردى، حيث نتبع أصل وضعه الدلالي في اللغة العربية قديماً، مع المقارنة بأصل وضعه في اللغة الفرنسية، ومن ثم نسبر كيف تحول مدلوله ليصطلح عليه؛ من أجل الإيفاء بمتطلبات التحليل السردى، مع توضيح لمفاهيمه وتظاهراته في السرديات (La Narratologie) العربية والغربية، والإشارة إلى دواله الأخرى، مثل المكان والحيز، وغيرهما.

ونحن نرمي إلى توضيح مفهوم الفضاء السردى وإشكالية المصطلحات المتداولة؛ للتعبير عن هذا المفهوم، وكيفية تناول هذا المفهوم ثلة من النقاد والمنظرين الغربيين والعرب، ارتأينا أن نتبع منهجاً بسيطاً واضحاً، بعيداً عن التعقيدات النظرية حول الماهية ودوالها، وكذا الظاهرية التي تغطي على اللغة الوصفة لمثل هذه المدلولات، وكيفية تحول دوالها من اللغة العامة إلى اللغة الخاصة، ومنها اللغة النقدية. وسنبداً من الوضع المعجمي وأصل الوضع اللغوي، ثم نخرج على أهمية المفهوم في الدراسات النقدية السردية، وكذا تقدمات هذا المفهوم وتظاهراته، ومن ثم نتبع تتبعاً تاريخياً ووصفياً انتقال المصطلح من أصل وضعه اللغوي إلى الجهاز المفاهيمي ومصطلحاته، مع الإشارة إلى الدوال الأخرى، ومدى قربها ومساجلتها للدال المركزي الذي نستبق ونسلم بهيمته على باقي المصطلحات، وهو الفضاء السردى، أو الفضاء الروائي.

**الكلمات المفتاحية:** الفضاء، الفضاء السردى، الحيز، المكان الروائي

للاقتباس: تواتي، خالد. «مصطلح الفضاء: من الأصل اللغوي إلى الوضع الاصطلاحي في النقد العربي المعاصر»، مجلة أنساك،

المجلد 3، العدد 2، 2019

<https://doi.org/10.29117/Ansaq.2019.0100>

© 2020، تواتي، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقاً لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما يتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

**OPEN ACCESS**

Submitted: 6 January 2019

Accepted: 19 April 2020

## The term space: from the original linguistic connotation to the idiom in contemporary Arab criticism

Khaled Touati

Professor of Modern and Contemporary Arab Criticism, Department of Arabic Language and Literature,  
Al-Wancharisi University Center, Tissemsilt, Algeria  
khaledtwati@gmail.com

### Abstract

In this study, we address one of the terms of the field of narratology, which is the term “narrative space” More specifically, we follow the origin of its linguistic connotation in the ancient dictionaries of the Arabic language, compared to the French language. And then we follow the shifts of this term that have led to the term’s settlement in the literary narrative critique field. This is done through an explanation of its concept and its aspects in the Arabic and western narratology, and on the other hand, we refer to other terms that are used in a similar way. The study aims to clarify the concept of “narrative space” and the problems that are faced in the definition of this concept, as well as how Western and Arab criticism scholars and theorists have approached this concept in the past, through a simple and clear approach. More specifically, we will clarify how these terms have shifted from ordinary general language to the special language used in the field of literary criticism. We start from the mapping of lexical meanings and a discussion of purely linguistic origins, and then we refer to the importance of the concept in narrative critical studies as well as the developments of this concept and its manifestations. Finally, we follow a historical and descriptive traceability of the term from its linguistic origin to its transformation into a term that expresses a particular critical concept. We will also refer to other meanings and functions and their semantic proximity to the central term. Eventually, we argue that “narrative space” has prevailed over other similar terms.

**Keywords:** space, narrative space, place narrative.

للاقتباس: تواتي، خالد. «مصطلح الفضاء: من الأصل اللغوي إلى الوضع الاصطلاحي في النقد العربي المعاصر»، مجلة أنساك، المجلد 3، العدد 2، 2019

<https://doi.org/10.29117/Ansaq.2019.0100>

© 2020، تواتي، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقاً لشروط- Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بآية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

## المقدمة:

مصطلح الفضاء هو واحد من المصطلحات التي يحتفل بها حقل السرديات ضمن الأبحاث النقدية للنص الأدبي، وتتجاذبه حقول أخرى كالسيمثيات مثلاً.

والسرديات حقل من حقول النقد التي وفدت إلينا من الغرب بمحملاتها من المفاهيم والمواضعات والنظريات والمصطلحات، حيث تحاول مجارة التراكم الإبداعي في الفنون السردية التي وفدت إلينا كذلك قبله، فتجذرت وتشعبت، وأصبح لها سننها الخاص ضمن دائرة الإبداع على المستوى الثقافي العام، وضمن دائرة الخطاب في عمليات التواصل.

ويمكن أن نعد مصطلح الفضاء هنا نموذجاً يمثل صناعة المصطلح في الدراسات النقدية العربية ويعطي لمحة عن الأطوار التي يمر بها، والتدرج في إخراجها من أصله اللغوي في وضعه الأصيل إلى أن يصير مفهوماً شبه متعارف عليه بعد أن تعتمل فيه مختلف الرؤى ووجهات النظر والمواقف المعرفية.

ستتدرج في سبر دلالات لفظة فضاء بدءاً من المعاجم العربية القديمة وشواهدنا، ونمر بالإشارة إلى ورود المفهوم في المدونة النقدية لدى الغربيين وعند الدارسين العرب، ثم نعزل هذه اللفظة المصطلح من بين ألفاظ ومصطلحات أخرى مجاورة لها وقرينة منها في المفهوم والتوظيف، موضحين ذلك كله بالأمثولات والأقوال من قبل النقاد والدارسين.

## الفضاء في المعاجم والكتب العربية:

جاء في لسان العرب تحت مادة (فضا): «فضا: الفضاء: المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فُضُوًا، فهو فاضٍ... وقد فضى المكان وأفضى إذا اتسع... والفضاء الخالي والواسع من الأرض، وفي حديث معاذ في عذاب القبر: ضربه بمرضاة وسط رأسه حتى يفضي كل شيء منه، أي يصير فضاء... والفضاء الساحة وما اتسع من الأرض، يقال أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء» (لسان العرب 157).

وقد ورد في نفس الجزء، وفي نفس الصفحة من لسان العرب أيضاً: أفضى فلان إلى فلان، إذا وصل إليه، وأصله أنه صار في رحبته، وفضائه وحيزه... وأفضى الرجل دخل على أهله، وأفضى إلى المرأة غشيها، وقال بعضهم: إذا خلا بها، فقد أفضى، غشيها، أو لم يغش. والإفضاء في الحقيقة الانتهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ [النساء 21]. أي انتهى وآوى، عداه بـ «إلى»؛ لأن فيه معنى وصل... وفي حديث دعائه - صلى الله عليه وسلم - للنابعة: لا يفضي الله فاك، هكذا جاء في رواية، ومعناه: لا يجعله فضاء لا سن فيه.

وهناك معانٍ وتعبيرات أخرى وردت في لسان العرب تحت مادة (فضاء) وما يهمننا منها هنا هو المعاني المرتبطة بمعنى (المكان)، والتي وجدنا بأنه لا يخرج جميعها من دائرة معاني الاتساع والفراغ والانفلات وما إليها من نعوت المكان. وتجدر الإشارة إلى أن صاحب (مختار الصحاح) لم يخرج عما ذكر هنا، وكذلك (صاحب العين) (الفراهيدي) (63).

وإذا رجعنا لأهميات الكتب الأدبية، وجدنا استعمالاً لكلمة (فضاء)، لا يخرج من إطار معاني الاتساع والفراغ والانفلات، كما رأينا في المعاجم، ونذكر هنا على سبيل التمثيل، ومن غير حاجة إلى تعليق، ما وجدناه في (طبقات

فحول الشعراء)، من شعر (المتوكل الليثي) (ت85هـ/ 704م) قوله:

«الذين سيوفهم زرق الأسنة والحصون فضاء» (الجمحي 685).

وقد أورد صاحب كتاب (المدحش) عبارة يستعمل فيها الكلمة تقول:

« فلم يحتملوا حصر الدنيا فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى » (ابن الجوزي 171)

وعثرنا في كتاب (قرى الضيف) على هذين البيتين من شعر (أبي الفتح البستي) (ت 400هـ/ 1010م) يقول:

«جمع الله في الأمير أبي نصر خصلاً تعلق بها الأقدار

راحة ثرة، وصدراً فضاءً وذكاءً تبدو له الأسرار» (ابن أبي الدنيا 364).

والسياقات هنا من الوضوح الذي يدل على المعاني التي ذكرناها، بحيث تكتفي بنفسها عن كل شرح، أو تعقيب.

ولكن الالفت للانتباه هو وجود مدلول آخر لكلمة (فضاء) كمصطلح يندرج ضمن فن الكتابة والإنشاء، ويعني البياض، أو الفراغ الذي يوجد على الورق بين الكلمات، أو بين الفقرات، كما هو معتبر في الطباعة في عصرنا، وهو مفهوم سنجد له اعتباره أيضاً أثناء دراستنا للفضاء الروائي، فيما سيأتي من فصول.

من أمثلة ذلك ما وجدنا في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) هذه العبارة المنسوبة إلى (ابن مقلة) (272هـ - 328هـ)، وفيها توجيهات إلى الكتبة يقول: «... واعتبارها أن تُحطَّ إلى جانبها ثلاث ألفات، أو أربع فتجد فضاء ما بينهما متساوياً» (القلقشندي 29)، وهذه نصيحة أخرى له لأحد المنشئين الديوانيين، قوله: «إذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاءً وكتب أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهناه» (القلقشندي 473).

وإذا رجعنا إلى كلمة (فضاء) بما تدل عليه في عصرنا، للمسنا بأنه أصبح لها تواضع جديد معاصر، لم تكن له سابقة في ما قبله من العصور، والنظر هنا ليس مقصوراً على المصطلح النقدي وحسب، ولكن الفكرة مطروحة كذلك بالنسبة للاستعمال الدارج لهذه الكلمة، حيث إن معناها أصبح يدور حول ما يدل على الأجواء العالية، أو بالتحديد ما فوق الغلاف الجوي الذي يحيط بكوكب الأرض، بالإضافة إلى توسعها لتشمل معاني أخرى كالفضاء، والخواء، وغيرهما.

إذن، يجدر بنا هنا أن نبحث في كيفية تغير دلالة كلمة (فضاء)، أو كيفية اتساع مدلولها، ليشمل معاني مثل: مطلق المكان، أو ما يحيط بالإنسان من أرض وأشياء، وغيرها.

وقد ذكر شريط بأن «الباحث المغربي الأستاذ الدكتور سعيد علوش هو أول من أدخل مصطلح الفضاء إلى المعجم العربي الحديث، وذلك حسب دلالاته الجديدة، وكما أشيعت في الدراسات الغربية المعاصرة، إذ أورد جل تعاريف هذا المصطلح في معجمه: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة» (شريط 144).

وبما أن كثيراً من التغيرات الدلالية التي طرأت على ألفاظ لغتنا في عصرنا هذا، مصدرها التأثير بمعاني مقابلاتها في اللغات الحية الأخرى، وكذا الترجمة إليها من هذه اللغات، وهذا شأن اللغات الحية جميعها، رأينا أنه من الأنسب في هذا المقام أن نلقي نظرة على معاني الكلمة في اللغة الفرنسية. أتأت على أفاً

ومن المتعارف عليه أن مفردة (فضاء) في اللغة العربية، تقابلها مفردة (Espace) في الفرنسية ولهذه الأخيرة معاني كثيرة ذكرت في قاموس (Le Robert)، في مادة (espace)، يمكننا أن نخرج بخلاصة بعد المقارنة مفادها أن هذه المفردة توظف في اللغة الفرنسية أيضًا بمعنى الفراغ والخواء، على غرار ما رأينا في اللغة العربية، وتعبر في الوقت نفسه عن المساحة الممتدة، كما تنزع أيضًا للدلالة على المكان صرفًا، وهذا يجعله أقرب إلى مدلولات المصطلح النقدي الذي سنتناوله في بحثنا، بينما نجد الأمر في اللغة العربية يستدعي تبريرًا يسوّغ توسع معاني كلمة (فضاء)، للدلالة على مطلق المكان، وبالتالي التوسع للدلالة على المفهوم النقدي الذي سنعرض له، فيما سيأتي من المباحث.

### الفضاء في الدراسات النقدية:

مصطلح الفضاء من المفاهيم النقدية التي ما تزال تتخبط في إشكاليات عدة، مردها إلى عدم اتفاق الدارسين واختلاف تواجعاتهم على مصطلح موحد يحمل مفاهيم محددة، ثم إن الأبحاث ذاتها «المتعلقة بدراسة الفضاء في الحكيم تعتبر حديثة العهد، ومن الجدير بالذكر أنها لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء الحكائي» (لحميداني 53).

وبالرغم من الأهمية البالغة لمفهوم (الفضاء) بما له من تأثير لا جدال فيه على حياة الإنسان، وبالتالي بروزه بشكل لافت وفعال في ثنانيا العمل السردي، إلا أنه لم يلق الاهتمام اللائق به من قبل الدارسين والباحثين الغربيين، وهم - كما نعلم - أصحاب السبق في إرساء مواضع علم السرد ونظرياته، هذا فضلًا عن الباحثين العرب الذي بقوا عالة عليهم ردًا من الزمن، ونستشهد هنا بما قاله (Goldstein 101) الذي يؤكد بأن: «الدراسات الأدبية فقيرة جدًا فيما يخص تناول موضوع (الفضاء)».

ويؤيده في ذلك الباحث (Mitterand 50) قائلاً: «إن (الفضاء الروائي) كان ميدانًا قليل الاستكشاف والتناول من قبل الأدب منذ مدة، ومن قبل علم السرد، وكذا السيميوطيقا، حيث اقتصرَت الجهود في السنوات الأخيرة على دراسة أعمال، ودراسات حول الشخصية، ومنطق السرد والزمن، أو الوقائع».

ويرى (Bourneuf 77) في مقال له نشر سنة 1970 قائلاً: «إنه في الوقت الذي تعددت فيه المصنفات حول (الزمن) منذ العشرين سنة التي خلت، لا نجد مع ذلك في مجموعها دراسات تعنى بالمفهوم الذي له علاقة لصيقة به؛ ألا وهو الفضاء في الأدب السردي».

حتى إن (تودوروف Todorov) لم يأت على ذكر الفضاء عندما عدد المقاييس الثلاثة لتحليل الخطاب السردي، حين يقول: «يبدو أن اتفاقًا عامًا قد تم في التحليل السردي للوقوف على ثلاثة مقاييس: الزمن، والرؤية، والطريقة». (تودوروف 15) «إلا أن مجموعة من الباحثين، قد أولت - بعد الحرب العالمية الثانية - عنصر (الفضاء) اهتمامًا لائقًا لم يحصل للدراسات السابقة أن بلغته، سواء من حيث التنظير له، أو من حيث الممارسة التطبيقية» (شريط 141).

ومن أول المنشورات التي ظهر فيها مصطلح الفضاء كعنصر من عناصر السرد الروائي أعمال (غاستون باشلار) ونظريته في النقد الظاهراتي عام 1938، في كتابه (التحليل النفسي للنار) وأتبعه بكتبه الأخرى، ومنها كتاب (شعرية المكان) (1957) الذي ترجمه (غالب هلسا) عن الإنجليزية عام 1980، بعنوان (جماليات المكان) وافتتحت به سلسلة كتاب (الأفلام) الصادرة عن دار الشؤون الثقافية ببغداد (أبو هيف 125).

وقد عُرف المكان [الفضاء] وحدة أساسية من وحدات العمل الأدبي والفني في نظرية الأدب، وعدت إحدى الوحدات التقليدية الثلاث، ولطالما كانت مثار جدل في تحقق العمل الأدبي والفني في المسرح بالدرجة الأولى، ولم يتجاوزها منظرو الأدب في العصر الحديث، بل صارت إلى ركيزة من ركائز الرؤية وجمالياتها في النظرية النقدية الحديثة، وما تتطلب إجراءاتها (أبو هيف 126).

ومن الدارسين الأوائل الذين أسهموا بفاعلية في لفت نظر الباحثين إلى هذا المفهوم نذكر الباحث الروسي (يوري لوتمان Iouri Lotman)، والباحثين الألمانين (بيتش R. Petsch)، و(هيرمان ميير H. Meyer). وكذا الباحثين الفرنسيين خلال سنوات الستينيات والسبعينيات، ممن أسهموا في ذبوع مصطلح (الفضاء) أمثال (جورج بولي George Poulet)، و(جيلبير دوران)، و(رولان بورنوف)، و(غاستون باشلار)، و(هنري متران)، وغيرهم.

الأمر نفسه حدث عند «الروائيين العرب الذين أهملوا - لحقبة طويلة - المكان، وعدّوه قسماً مكملاً للشخصيات والحدث، ولذلك فإن النقاد العرب بدورهم أغفلوا أهمية الفضاء في دراساتهم، وركزوا على الجوانب الأخرى في النص الروائي» (السيد 141)، بالرغم مكانة الفضاء في حياة الإنسان المنعكسة في الآداب بالكلية، وفي النصوص السردية على الخصوص، ناهيك عن أهميته كموضوع أدبي أخذ مكانه في النفسية الجماعية منذ القديم، وأقرب شاهد للذهن على هذه الفكرة موضوع الطلل في الشعر العربي القديم، ولكن «على الرغم من أن (المكان) [الفضاء] قد احتلّ حيزاً كبيراً في شعرنا العربي في المقدمات الطللية، وفي وصف الطبيعة الجامدة والمتحركة، فإنه لم يحظَ بدراسات هامة في أدبنا النثري، حتّى جاء الاهتمام به مع التقنيات الحدائية للرواية، فبدأ يحتلّ مكاناً هاماً في السرد الروائي» (عزام 67).

وتتواتر مقولات المتبعين للدراسات النقدية حول مفهوم الفضاء باعتباره عنصراً بنائياً في النص السردية، وكلها تقف عند تأخر إيلاء الاهتمام به، «وعلى العكس من ذلك فقد كان الزمن الروائي موضوعاً للعديد من الدراسات، وهذا ليس بمستغرب لأن الزمن زمن الخطاب وزمن القراءة، هو العامل الأساس لوجود العالم التخيلي نفسه» (بحراوي 25).

إلا أنه لم يتم التنبّه إلى أهمية المكان في عالم الرواية إلا بعد مرور فترة زمنية مكنت الروائيين والنقاد من محاولة تشكيل نظرية روائية، إذ تم التعامل معه في البداية بوصفه إطاراً حاوياً لمجموعة من الأحداث، لكن بعد تراكم كتابي وجد المتعاملون معه أن ثمة عناصر غير محدودة يمكن توظيفها في المكان، فالمكان فضاء وشخصية ومحور وركن أساس في بنى الرواية الحديثة.

ولم يستحوذ مصطلح (الفضاء) على اهتمام الباحثين العرب إلا بعد نشر جهود الأكاديميين المغاربة المتمثلة أساساً في بحوثهم الجامعية، ودراساتهم النقدية التي ظهرت بعد سنة 1980، مع التذكير بما أسهمت به ترجمة «غالب هلسا» لكتاب غاستون باشلار في فتح الباب لكي يتسلل هذا المفهوم إلى المدونة النقدية العربية ويأخذ مكانه ضمن دراسات السرد الروائي، ثم أتبعه بدراسة للمكان في الرواية العربية، والتي يعتبرها محمد عزام من أولى المحاولات النقدية العربية التي تناولت المكان باعتباره عنصراً حكاثياً مهماً في الرواية (عزام 111).

ومن النقاد العرب الذين اهتموا بهذا المفهوم، نذكر «سيزا القاسم»، وكذلك ما قدمته (مجلة فصول)، وبعض



المجلات الأخرى، حيث مهدت سبيل المعرفة النظرية والممارسات التطبيقية لنشرها لبحوث ومقالات عن (الفضاء) في الإبداع العربي وغيره (شريط 142).

كانت تلك إطلالة سريعة على تواجد مفهوم الفضاء في الدراسات النقدية عند الغرب والعرب، وكيف كان الاهتمام به ضمن المسار التطوري لنظرية الرواية وعلم السرد، أو السرديات.

### المصطلحات الأخرى لمفهوم الفضاء:

في أثناء بحثنا وجدنا أن الباحثين العرب يستعملون مصطلحات مختلفة ومتعددة لمفهوم الفضاء، وليس هذا فحسب، فاختلافهم لا يقف عند حد التواضع على هذا المصطلح أو ذاك، بل يتعداه إلى الاختلاف حول المدلولات التي يحملها كل مصطلح من هذه المصطلحات، فكل باحث يوظف مصطلحه، وفق منظوره، وبمفهومه الخاص به، بل إن باحثين آخرين يستعملون أكثر من مصطلح، ولا يلتزمون بمصطلح واحد. ومع هذا فإن الأمر الواقع الذي فرضته بعض الأقسام الجادة في مجال البحث الأدبي جعل لمصطلح (الفضاء) رواجاً يكاد يغطي على ما سواه من المصطلحات.

ومن المصطلحات التي يوظفها الباحثون، نذكر على سبيل المثال: مصطلح (الحيز)، وكذا مصطلحات (البيئة الأدبية)، و(المجال)، و(الموقع). غير أن مصطلح (المكان) يظل المصطلح الأكثر منافسة لمصطلح (الفضاء)، في حلبة الزواج والاستعمال لدى الباحثين والنقاد.

ف نجد، على سبيل المثال، أن شريط يوظف مصطلح (البيئة)، ونسوق له في هذا المقام قوله: «يعد عنصر (البيئة) ركناً أساساً في القصة، فهو الحيز الطبيعي الذي يقع فيه الحدث، وتحرك الشخصيات في مجاله، ولذلك فإن صفاته تختلف من نوع لآخر، من حيث الاتساع والضيق، وذلك بحسب طاقة كل جنس وقدراته الفنية، وأهم خصائص هذا الركن (بيئة القصة القصيرة)، أن تكون البيئة مركزة قدر الإمكان، وأن يتجنب القاص تنوعها قدر استطاعته» (شريط 38)، مع أنه يقر برواج مصطلح الفضاء قائلاً: «وإذا كانت مثل هذه المصطلحات: المكان، الحيز، الفضاء، تتردد في الدراسات والبحوث التي تناولت هذا الموضوع، نظيراً، وممارسة، فإن مصطلح (الفضاء) كان أكثرها حضوراً، وأغناها دلالة وتجربة وأعمقها بعداً» (شريط 144).

أما (عبد الحميد بورايو)، فبالرغم من أنه يستعمل مصطلح (المكان) بكثرة، إلا أنه يوظف أيضاً مصطلح (الحيز المكاني)، عندما يكون في معرض التمييز بين مصطلحين: (الحيز النصي)، الذي يقصد به الصورة الشكلية التي قدمت بها الرواية للقارئ، من حيث ترتيب أقسامها، وفيما يتعلق بعنوانها وعناوين فصولها، ومضامين فاحتها...، ومصطلح (الحيز المكاني)، الذي يقصد به الحيز الذي يشمل الأماكن، سواء منها المتخيل، أو الفعلي الواقعي الذي له مرجعية واقعية (بورايو 64).

ونجد المصطلح نفسه (الحيز المكاني)، موظفاً من قبل (أحمد طالب) في بحثه (السرد وجمالية المكان)، المنشور بمجلة (الموقف الأدبي)، حيث يعرفه بقوله: «إن الحيز المكاني هو الفضاء الذي تتحدد داخله مختلف المشاهد والصور والمناظر والدلالات والرموز، التي تشكل العمود الفقري للنص السردية، إذ يعد المشهدية الخلفية للشخصية القصصية، فهو مسرح الأحداث» (طالب 157).

وقد استعمل (محمد عزام) مصطلح (فضاء المكان الروائي)، وجعله عنواناً للفصل الثاني من كتابه «شعرية الخطاب السردى» (عزام 67).

إن عدم اتفاق الدارسين العرب على توظيف مصطلح واحد لمفهوم الفضاء هو من أحد المشاكل المصطلحية التي مازالت تتخبط فيها الدراسات الأكاديمية العربية، وهو عائق، في بعض الأحيان، أمام التواصل المعرفي بين الدارسين العرب.

## 1. مصطلح الحيز في مقابل مصطلح الفضاء:

من المعروف لدى الباحثين أن (عبد الملك مرتاض) يتفرد باصطناع مصطلح (الحيز) بدلاً من (الفضاء)، وسط مخالفة كم هائل من النقاد والمنظرين العرب، وقد عبر هو نفسه بشيء من المرارة عن ذلك في تصدير دراسته عن (جمالية الحيز في المعلقات) بقوله: «لقد خالفنا جماعة من النقاد العرب المعاصرين، في أنهم يصطنعون (الفضاء)، وفي أننا اصطنعنا (الحيز) الذي نتعصب له وننضح عنه» (مرتاض 91).

ولا شك أن تعبيره بصيغة الماضي (اصطنعنا)، في مقابل صيغة الحاضر (نصطنع)، إشارة إلى أنه كان من اللائق والمفروض على غيره أن يتبعه لأنه - كما يرى - الأسبق في تناول هذا المفهوم، وبالتالي يحق له أن يضع المصطلح المناسب له.

ففي كتابه (في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد)، عند تطرقه إلى مكانة (الحيز) في الدراسات الروائية العربية، جزم (عبد الملك مرتاض) قائلاً: «لم نر أحداً من كتاب العربية، ممن اشتغلوا بنقد الأدب الروائي، أو التنظير للكتابة الروائية، خصص فصلاً مستقلاً لهذا (الحيز) (أو الفضاء بالمصطلح الشائع في النقد العربي المعاصر)، ماعدا (حميد حميداني)، الذي اختص هذه المسألة بفصل مستقل تحت عنوان (الفضاء الحكائي) (مرتاض 192).

وبالرغم من أنه أوماً إلى سبق (حميد حميداني) في دراسة موضوع (الفضاء الروائي)، إلا أنه عارضه بشدة لاهتمامه البالغ بما يسمى (الحيز النصي) مشيراً إلى أنه (حميداني) أهمل الجوانب الأخرى، بقوله: «إن نص (حميداني) لا يتمحّض في الحقيقة للحيز الذي نريد إليه نحن، كما سلفت الإشارة إلى بعض ذلك، في هذه المقالة، التي تكتب لأول مرة في اللغة العربية عن هذا المكون السردى» (مرتاض 194).

وكان قبل ذلك أورد له فقرة مطولة اقتطعها من كتابه الموسوم بـ (بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي) مصدراً إياها بقوله: «غير أن الدكتور (حميداني) اتجه، بناءً على قراءاته الفرنسية، متجهاً يهتم بحيز الصفحة وحروفها وفراغها، أو بياضها» (مرتاض 192)، ثم قدّم آراءً مضادة تنقض وجود أهمية لما يسمى بالفضاء النصي (مرتاض 193).

ومن جهة أخرى نجد (عبد الملك مرتاض) أولى اهتماماً لهذا الجانب عند تحليله لرواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ، حيث أنهى هذه الدراسة بالإشارة إلى الفضاء النصي في هذه الرواية، من دون أن يسميه بأي من المسميات الموضوعية له، وقد دبح هذا المبحث بقوله: «أصبحت العناية بحجم النص المدروس، ووصف مساحته عبر صفحات الكتاب المنشور فيه، من السيميائيات المطلوب الكشف عنها، في أي دراسة حديثة» (مرتاض 245).

والحقيقة التي يمكن أن يصل إليها أي قارئ اطلع على بحث (حميداني) هي أن هذا الأخير تطرق بكثير من الإسهاب إلى جوانب كثيرة من موضوعه الفضاء الروائي بجميع أشكاله وتظاهراته.



ولو نرتضي الاحتجاج بالعملية الإحصائية، فإننا نجد بأن مبحث (الفضاء الروائي) في كتاب (لحميداني)، جاء في نطاق عشرين صفحة منها ست صفحات فقط تطرق فيها إلى مفهوم الفضاء النصي الذي رده (عبد الملك مرتاض) الأمر الذي يبين بأن (لحميداني) لم يقتصر في مفهومه للفضاء على الفضاء النصي وحده، بل تطرق إلى عدة مباحث منه (لحميداني 55، 73).

ولنعد إلى إشكالية المصطلح الذي اصطنعه (عبد الملك مرتاض) وفق وجهة نظره الخاصة به، التي يعرض عليها بالنواجز، والتي لا يترك أي مناسبة إلا ويقدم مسوغاته وحججه التي تجعله يتمسك بتوظيف مصطلح (الحيز) بدلاً من (الفضاء)، وفي الوقت نفسه لا يكل يدعو إلى العزوف عن استعمال مصطلح (الفضاء)، لأنه كما قال: «قاصر بالقياس إلى الحيز، فالفضاء من الضرورة أن يكون معناه جارياً في الخواء والفراغ، في حين أن الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى التواء، والوزن والثقل، والحجم والشكل...» (مرتاض 185).

وفي حقيقة الأمر فإن (عبد الملك مرتاض) لم يجانب الصواب، في قوله: إن معنى (الفضاء) يجري في الخواء والفراغ. وهذا ما لمسناه بالفعل عند تطرقنا إلى المعنى اللغوي (للفضاء) في المعاجم العربية القديمة، ولكن هناك حقيقة لا يجب أن نغفلها وهي ما يسمى بالتغير الدلالي للمفردات، وهذه حقيقة تفرض نفسها على الساحة الأدبية واللغوية، فكم من كلمة فصيحة، كان مدلولها ينحو منحى معيّنًا مثبتاً في المتون وأمهات الكتب، تغير معناها وتهجّن وأصبح لها معنى جديد، ربما يناقض معناها الأصلي، ومع ذلك نجده جارياً على الألسن مستساغاً بفعل تكراره والتبذل به، حتى يُظنّ كل الظن أنه معنى، له جذر عميق في الأصالة والفصاحة وهو في حقيقته خلاف ذلك.

وكلمة (الفضاء) كما ذكرنا سابقاً، كان معناها مقتصرًا على وصف المكان بالاتساع، أو الفراغ والخواء، ولكن أصبح لها معنى دارجٌ في عصرنا يماثل معنى نظيرتها الفرنسية (Espace)، والذي يدل بالإضافة إلى ذلك على المكان، أو مساحة من الأرض بهذا الإطلاق، كأن يقال مثلاً: (هذه مساحة خضراء)، أو هذه (مساحة تجارية)، وغير ذلك من التعبيرات التي دخلت على اللغة العربية في عصرنا، تأثراً باللغات الحية الأخرى، هذا بالإضافة إلى المعنى الشائع الذي يدل على الأجواء العالية ما فوق الغلاف الجوي لكوكب الأرض، في حين أن دلالاته على الفراغ والخواء يندر استعمالها في الكتابات المعاصرة.

ومن جهة أخرى، فلو نقبنا عن البديل الذي أطلقه (عبد الملك مرتاض) لوجدنا بأن أمهات المعاجم القديمة لا يرد فيها (الحيز) بمعنى يشمل بالإضافة إلى المكان الأشياء والتواءات والأشكال.

ففي (لسان العرب): «وكل ناحية على حدة حيز، بتشديد الياء، وأصله من الواو، والحيز تخفيف الحيز، مثل هيّن وهيّن» (ابن منظور 342).

وفي المعجم العربي (مختار الصحاح): «الحيز بوزن الهيّن ما انضم إلى الدار من مرافقها، وكل ناحية حيز» (الرازي 68). والتعريف نفسه، مضموناً ولفظاً، نصادفه في معجم (العين) (الفراهيدي 275).

وأكثر ورود كلمة (الحيز) في الكتب يحوم حول معنى المجال، أو النطاق فقد جاء في معجم (الحدود الأنيقة) عند تعريف مفهوم (البيان): «البيان إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي» (الأنصاري 69).

وقد جاء في (المثل السائر) لـ (ابن الأثير) هذه العبارة: «الألفاظ داخلية في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن» (ابن الأثير 81).

ومهما يكن فالظاهر أن الأسع استلذت لفظة (الفضاء) واستحسنتها «وقد أثر المشتغلون بدراسة عنصر المكان في الرواية استخدام مصطلح الفضاء الروائي» (البوعلي 217)، وطرحوا غيره من المصطلحات.

وواقع الحال يقول بأن مصطلح (الفضاء)، فرض نفسه فرضاً، بحق أو بغير حق، مثلما شاع كثير من الأخطاء في المفردات والتراكيب اللغوية، ثم إن وضع «المصطلح في كثير من الأحيان، إنما هو مسألة ذوق، ولا يمت إلى حقائق الأمور بصلة» (النويري 252). وهنا قضية شائكة لا يتسع المجال للنظر فيها هنا.

ومما لا يجب أن نغفل ذكره هنا، أن (عبد الملك مرتاض)، ولّد مصطلحات أخرى وردت لأول مرة - بحسب ظني - في كتابه (التحليل السيميائي للخطاب الشعري)، مشتقة من (الحيز)، وهي (التحيز) و(التحاي) و(الحيززة).

و(عبد الملك مرتاض) يقول بأن لا أحد من المتعاملين مع النصوص الأدبية من العرب المعاصرين، يمضي على نحوه في التعامل مع (الحيز)، فتعامله مع هذا المفهوم «لا يرمي بالضرورة إلى تسليط الضوء على المكان من حيث هو مفهوم تقليدي، ولكنه يشرّب إلى منحه شحنة جديدة من الدلالة السيميائية بتوسعة مفهومه إلى حيز من الأحياء، كالخطوط والأبعاد والأحجام والأوزان، وكل ما يتخذ شكلاً ما في حيز ما، كالطر والسحاب والماء وهلم جرّاً» (مرتاض 86).

والغاية من استعمال مصطلح (التحيز)، حسب مفهومه، هي «بعث الحركة التأثيرية في هذا الحيز، ليفرز أحياناً جديدة، بناءً على لوحات حيزية خلفية تتمثلها في النص المقروء» (مرتاض 86).

وبين لنا الأطوار التي ترد للحيز الخصب (على حد قوله)، حيث «ينتقل فيها من حالة المحايدة الفاعلة التأثير إلى حال فاعلة، مؤثرة مفرزة، مخصبة، حال تتخذ لها مظهر الحيز الشيط في محيطها الدلالي، والحال الثالثة التي تنشأ من الحال الثانية، الناشئة هي أيضاً من الحال الأولى، هي التي نطلق عليها مصطلح (التحاي)، والمرحلة المجسدة لمرحلة أوج التفاعل الحيزي» (مرتاض 87).

وكان قد ذكر في مدخل الدراسة، عبارة أوجز وأوضح من هذه يقول فيها: «والتحاي، تبادل الأحياء فيما بينها المواقع والوظائف، داخل لوحة حيزية واحدة، أو عدة لوحات من الحيز» (مرتاض 18).

أما (الحيززة) «فتكون بمنزلة جهاز لإنتاج الحيز... وإذا كان هذا الجهاز لا يبرح مفتقراً إلى بلورة وتقعيد، وإلى تأصيل وتفريع؛ حتى يستوي له المنهج الذي يتخذ الصورة النهائية ليتمكن الإفادة منه في تحليل الخطاب الأدبي؛ فإن ذلك لا يحظر علينا أن نلج منذ الآن في مرحلة التطبيق» (مرتاض 30).

والظاهر أننا سنرى فيما سيأتي من أيام، احتياج الناقد الأدبي إلى صيغ التفعيل والتفاعل والفعلة وغيرها، يريد اشتقاقها من مصطلح (الفضاء) فلا يستطيع إلى ذلك سبيلاً، وعندها يمكن أن يجد مصطلح (الحيز)، ومشتقاته وأوزانه الأخرى مكانه بين المصطلحات الأدبية المعتمدة. بشرط أن تولد هذه المصطلحات، وتوضع لها المفاهيم التي تحملها وفق رؤية مضبوطة ودقيقة يلتزم بها، تتصافر معها الإجراءات التطبيقية، وإلا ما جدوى إطلاقها دون ضبط مفاهيمها ودون وضعها حيز الإجراءات التطبيقي.

فقد وجدنا (عبد الملك مرتاض) نفسه، يضع مصطلحين اثنين في مقابل المصطلح الفرنسي (Spatialisation)، حيث وظف في مرة واحدة مصطلح (التحيز) (مرتاض 191) في كتابه (في نظرية الرواية)، ووظف مصطلح (الحيززة)

في طبعة أخرى من نفس الكتاب. ووضح المفهوم الذي يحمله هذا المصطلح بعبارة واحدة وردت في الطبعين هي: «إذا توسعنا في رؤيتنا إلى الحيز، وهي رؤية تبدو لنا مشروعة فإن كل حيز سيولد حيزاً آخر مثله، وأكبر منه وهو ما يمكن أن نطلق عليه (النشاط الحيزي)، أو الحيززة (Spatialisation, Spatialization)» (مرتاض 125).

في حين أننا وجدناه يضع تفرقة بين مصطلح (التحيز)، ومصطلح (الحيززة)، كما سبق ورأينا ذلك في كتابه (التحليل السيميائي للخطاب الشعري) (مرتاض 30، 31، 86).

وكنا ذكرنا فيما سبق من هذا البحث بأن (عبد الملك مرتاض)، ينفرد بتوظيف مصطلح (الحيز)، غير أن هذا كلام لا يؤخذ به على إطلاقه هكذا، فقد يكون استعمال مصطلح (الحيز)، جارياً في بعض الأبحاث، ولكن على نطاق ضيق كما يبدو، فقد وجدنا في أثناء جمعنا لمادة هذا البحث، أن (عادل فريجات) وظف مصطلح (عبد الملك مرتاض) في كتابه (مرايا الرواية)، بالرغم من أنه يستعمل من حين لآخر مصطلحي (الفضاء)، و(المكان).

حيث يستعمل مصطلح (الحيز) في كتابه المذكور في معرض دراسته لرواية (شموس الغجر)، للروائي (حيدر حيدر)، التي نورد منها هذه العبارة: «إذا كان العنوان قدم لنا عوناً في فهم الرواية، فإن (الحيز الروائي)، أو بعضاً منه، وهو البرية هنا، قد أدى وظيفة أخرى من وظائف السرد، وساعد على رسم اللوحة المتناسقة في هذا العمل» (فريجات 47).

وبرغم توظيف عدد من الدراسات لمصطلح الفضاء، إلا أن مصطلح (الحيز) الذي اصطنعه (عبد الملك مرتاض)، يمكن أن يكون له حظه من الاستعمال لدى بعض الباحثين ولما لا الانتشار في يوم من الأيام، في أوساط النقاد والدارسين، نظراً لجهوده في التأصيل والترويج له.

ونخلص في الأخير إلى أن الدكتور (مرتاض) يعتمد مصطلح الحيز بدل مصطلح الفضاء ويعطيه مظهر، مثلما أعطى باحثون آخرون للفضاء مظهر كذلك، وهي مظاهر متقاربة على ما يبدو (الحيز الجغرافي / الحيز النصي / الحيز الدلالي) ويقابلها على مستوى الفضاء (الفضاء الجغرافي / الفضاء النصي / الفضاء الدلالي)، فيمكن أن تكون هذه الإشكالية مجرد اختلاف التسمية.

وما يقصد بالإشكالية هنا، إشكالية وضع مصطلحين للدلالة على المفهوم نفسه، إذن فما دام المصطلحان (الفضاء / الحيز) لهما مفهومان متقاربان، إن لم نقل متطابقين، فإن حسم السبق والرواج لأحدهما مرهون بالزمن وبالتبذل به من قبل الباحثين.

## 2. مصطلح المكان في مقابل مصطلح الفضاء:

ذكرنا بأن لمفهوم الفضاء مصطلحات عديدة، غير مصطلح (الفضاء)، ومن تلك المصطلحات (المكان)، عوضاً عن مصطلح الفضاء، وقد «كان» (غالب هلسا) هو أول الدارسين للمكان، وذلك في كتابه (المكان في الرواية العربية)» (عزام 67)، وقد وظف مصطلح (المكان) للدلالة على عنصر يشكل سيرورة العمل السردي، وصنّفه «إلى أربعة أصناف هي:

1. المكان المجازي: وهو المكان الذي نجده في رواية الأحداث... إنه مكان سلبي، مستسلم، يخضع لأفعال الشخصيات.

2. المكان الهندسي: وهو المكان الذي تعرضه الرواية بدقة وحياد، من خلال أبعاده الخارجية.

3. المكان كتجربة معاشة داخل العمل الروائي، وهو قادر على إثارة ذكرى المكان عند المتلقي.

4. المكان المعادي: كالسجن والمنفى، والطبيعة الخالية من البشر ومكان الغربة، وهو مكان يدخل تحت السلطة الأبوية، بخلاف الأمكنة الثلاثة الأولى التي يراها أماكن أمومية» (غزام 68).

ومن النقاد الذين يوظفون مصطلح (المكان)، في مقابل المصطلحات الأخرى كـ (الفضاء) و (الحيز)، نذكر على سبيل المثال الناقدة (سيزا القاسم)، في كتابها الشهير لدى الطلبة الباحثين (بناء الرواية)، حيث إنها رغم إدراكها أن «بعض النقاد الغربيين يحاولون التفرقة بين مستويات مختلفة من المكان» (القاسم 75)، إلا أنها تترجم المصطلح الفرنسي (Espace)، ونظيره الإنجليزي (Space)، إلى العربية بكلمة (الفراغ) (القاسم 75)، دون أن تستعملها في بحثها المذكور.

والتزمت (سيزا القاسم) «في هذا البحث استخدام كلمة (المكان) اتساقاً مع لغة النقد العربي... والمكان يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية» (القاسم 76).

ونذكر كذلك (حبيب مونسي) الذي التزم أيضاً بتوظيف مصطلح (المكان) دون غيره من المصطلحات في دراسته الموسومة بـ (فلسفة المكان في الشعر العربي). وتعريفه للمكان لا يخرج بحال - كما سنرى فيما سيأتي من مباحث - عن الحد الموضوع للفضاء الروائي، بالمفهوم الذي يحمله لدى معظم النقاد المحدثين، حيث يقول: «كل ملائمة للمكان إنما هي ملائمة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمكان المعيشي، ارتباط وجود، وانتماء، وهوية. فالمسألة المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب، وإنما تتعداها إلى مجالات أوسع تضطلع بها الدراسات الإنسانية في مختلف اهتماماتها وحقولها» (مونسي 7).

كما نجد مصطلح (المكان) يهيمن على الدراسة التي قدمها (سليمان حسين) في كتابه (مضمرات النص)، حين يتطرق إلى دلالات المكان عند الروائي (جبرا إبراهيم جبرا)، ومفهومه للمكان، يقترب كثيراً من المفاهيم التي يحملها مصطلح (الفضاء)، كما سنرى، ومفهوم (عبد الملك مرتاض) للحيز، كما رأينا سابقاً، فالمكان عند (سليمان حسين) «يستعان به لخلق إيهام بالواقعية، والإعانة على تصور العالم الروائي، ويدخل في الحسبان أيضاً مكونات المكان الأخرى، كالآثاث والأشياء، والمأكول والمشرب، ومقتنيات البيئة والطبيعة، وللمكان دلالة نفسية، تميز العلاقة التأثيرية التي تقوم بين الإنسان والمكان، فيغدو المكان محملاً نفسياً خبرياً في ذات الكائن» (حسين 305).

هذا وقد عثرنا على مجموعة من المقالات الأدبية، تستعمل مصطلح المكان بدلاً من مصطلح (الفضاء)، أو أي مصطلح آخر بدلاً عنه، ونكتفي هنا بذكر عناوين هذه المقالات، مع الإشارة إلى المجلات المنشورة فيها:

- «المكان دلالاته ودوره السردية، قراءة في رواية إبراهيم الكوني: البئر نموذجاً»، تيسير عبد الجبار الألوسي، مجلة علوم إنسانية، عدد 06، فبراير 2004 (المجلة الإلكترونية، علوم إنسانية).

- «عنصر المكان في تكوين البناء الروائي»، محمد المنصور، صحيفة 26 سبتمبر، عدد 1208، ص. 9.

- «الرواية والمكان»، مبارك ربيع، صحيفة 26 سبتمبر، عدد 1110، ص. 7.

- «السرد القصصي وجماليته المكان»، أحمد طالب، مجلة الموقف الأدبي عدد 403، نوفمبر 2004.

### 3. مصطلح المكان كعنصر ضمن مكونات الفضاء:

نذكر هنا أن «أغلب النقاد الذين تحدثوا عن الفضاء، كانوا يراعون شرطاً أساسياً، وهو وجود مجال مكاني معين يمكن أن يُدرك، أو يتخيل، كما يمكن أن يحتوي على أشخاص، أو حتى على أحرف طباعية» (لحميداني 61)، ولكننا هنا نريد أن نتناول مصطلح (المكان) وعلاقته من حيث المفهوم بمصطلح (الفضاء)، حيث إن بعض النقاد والباحثين في مجال النقد الأدبي يستعملون مصطلح (المكان) مقابلًا لمصطلح (الفضاء). كما رأينا في المبحث السابق. وبعضهم الآخر يستعملونها معاً، ويميزون بينهما كمفهومين مختلفين، أو يميزون بينهما بحسب ما يروونه من لزوم التفرقة بينهما في درجة التعميم والتخصيص، باعتبار أن (المكان) جزء من الفضاء، وأحد مكوناته، أو أحد العناصر التي تدخل في تشكيله. وهذا الذي سنعرض له في هذا المبحث، فيما يأتي من سطور.

(المكان الروائي)، في مفهوم بعض النقاد، هو جزء محتوي في (الفضاء)، ومن هؤلاء النقاد، نذكر الباحث (الفصيل 72)، الذي يقول: «المكان الروائي حين يطلق من أي قيد، يدل على المكان داخل الرواية، سواء أكان مكاناً واحداً، أو أمكنة عدة، ولكننا حين نضع مصطلح المكان في مقابل الفضاء، بغية التمييز بين مفهومين، فإننا نقصد بالمكان الروائي المفرد ليس غير، ونقصد بالفضاء الروائي أمكنة الرواية جميعها».

أما الناقدة (سيزا القاسم)، فبالرغم من أنها آثرت الالتزام باستخدام مصطلح (المكان) في جميع الحالات، كما ذكرنا ذلك في موضع سابق، إلا أنها تدرك جيداً، وجود الحاجة إلى التفرقة بين «مستويين مختلفين للبعد المكاني، أحدهما يتركز فيه مكان وقوع الحدث، والآخر أكثر اتساعاً، ويعبر عن الفراغ المتسع الذي تتكشف فيه أحداث الرواية» (القاسم 76).

مع العلم أنها عندما تترجم، تضع الثنائية (المكان / الفراغ)، كمقابل للكلمة الفرنسية (Espace) ونظيرتها الإنجليزية (Space)، في حين تستخدم الكلمة (الموقع) كمقابل للفرنسية (Lieu)، والإنجليزية (Location)، وتذكر بأن النقاد الكلاسيكيين «اكتفوا في اللغات الثلاث باستخدام كلمة (مكان / Lieu / Place) للدلالة على كل أنواع المكان، حيث لم يكن معنى (الفراغ)، بمفهومه الحديث قد نشأ بعد» (القاسم 76).

ومن ثم فقد «ضاق الفرنسيون بمحدودية كلمة (Lieu) (الموقع)، فبدأوا في استخدام كلمة (Espace / فراغ)، ولم يرض نقاد الإنجليزية عن اتساع كلمة (Place / Space) (مكان / فراغ)، وأضافوا استخدام كلمة (بقعة / Location) للتعبير عن المكان المحدد لوقع الحدث» (القاسم 76).

والظاهر أن (سيزا القاسم)، تترجم كلمة (Space) الإنجليزية، إلى كلمة (مكان)، انطلاقاً من أن هذه الكلمة (Space) هي من مرادفات الكلمة (Place) التي تقابل كلمة (مكان) في اللغة العربية.

هذا وقد استعمل (عبد الملك مرتاض) مصطلح (المكان) في دراسته السيميائية لرواية زقاق المدق، عندما احتاج إلى التفرقة بين المكان الجغرافي الحقيقي، أو الواقعي، وبين إطلاقات أخرى هي، كما قال، أشمل وأوسع (مرتاض 245).

والمكان عنده بحسب ما جاء في هذه الدراسة هو «كل حيّز ما، عنى حيّزاً جغرافياً حقيقياً، من حيث يطلق الحيّز في حد ذاته على كل فضاء خرافي، أو أسطوري، أو كل ما يند عن المكان المحسوس، كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسمة مثل الأشجار والأنهار، وما يعتور هذه المظاهر الحيّزية من الحركة، أو التغير» (مرتاض 245).



وما تنهى إلى أفهامنا من هذه العبارة، ومن التحليل الشيق الذي أجراه على رواية (زقاق المدق)، للأديب (نجيب محفوظ)، أنه يطلق (المكان) على (الأحياز) التي تتكون منها الرواية، نظرًا إلى أنها تستند إلى أماكن لها مسمياتها في الحقيقة التي اتكأ عليها (محفوظ) في بناء أحداث روايته، مثل غيرها من الروايات التي كتبها انطلاقًا من الواقع القاهري، كما هو معروف عنه، في مذهبه الواقعي الذي ينهجه في إبداعاته.

أما (الحيز)، فنفهم من ذلك أنه يطلقه على الأمكنة المستوحاة من خيال المؤلف، والتي لا وجود لمسمياتها، أو لمثيلاتها على أرض الواقع.

والظاهر أن هذه كانت مرحلة أولية من مراحل تنظير (عبد الملك مرتاض) لهذا المفهوم السيميائي، حيث فاته بأن أي مكان روائي، مهما بالغ الكاتب في وصفه، هو محاكاة للواقع، فإنه سيبقى دومًا مكانًا ذهنيًا، أي أن «المكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل، المكان الذي صنعتها اللغة انصياعًا لأغراض التخيل الروائي وحاجاته» (الفصل 72).

وعلى أية حال فمن المتفق عليه، أن المكان في الرواية أيًا كان شكله ليس هو المكان في الواقع الخارجي، ولو أشارت إليه الرواية، أو عنته، أو سمته بالاسم «فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكانًا خياليًا له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة» (القاسم 74).

وربما جاءت تفرقة (عبد الملك مرتاض) بين (المكان) و(الحيز) في مرحلة تطبيقية سبقت المرحلة النظرية، التي تتسم بالتروي والنظر الدقيق في المصطلحات والإطلاقات النقدية المختلفة، والتميز بينها، إذ نجده في كتابه الموسوم بـ (في نظرية الرواية) يقول: «إن الحيز الأدبي - الروائي - ليس الجغرافيا، ولو أراد أن يكونها، إنه مظهر من مظاهر الجغرافيا، ولكنه ليس بها» (مرتاض 123).

وهو هنا لا يحاول أن يسقط مصطلح (المكان الجغرافي) من اعتباراته، بحسب فهمنا من قوله: «ولما كان الحيز الروائي يعكس مثول الإنسان في صورة خيالية (الشخصية)، فإن هذه الشخصية ما كان لها لتضطرب إلا في حيز جغرافي، أو في مكان» (مرتاض 123).

ولكنه يحاول أن يزيل المغالطة التي قد تستدعيها إلى تصورنا (ياء) النسبة في كلمة (الجغرافي)، فنخلط بين المكان الأدبي المنسوب إلى الصنعة الأدبية وبين المكان المنسوب إلى (الجغرافيا) التي تعني «العلم الذي موضوعه وصف وشرح الحيز الراهن، والطبيعي، والإنساني لوجه الأرض» (مرتاض 123).

والظاهر أن (عبد الملك مرتاض)، يستعمل مصطلح (المكان)، أو (الحيز الجغرافي)، إذا كان واردًا في الرواية ورودًا سلبياً، مجرد خلفية تزيينية، لا نلمس له تأثيرًا على مسار العمل السردى، ودليلنا على هذا ما ورد في دراسته لأحياز بعض القصص الجزائرية، يقول مثلاً: «أما لدى (المنور)، فالحيز في الغالب جغرافي، ولا يكاد يشذ إلا في قصة (عودة الأم)، حيث نلفي الحيز رمزًا للوطن، ولكن صورة هذا الحيز خلت، في رأينا، من المسحة الشاعرية، والفلسفة معًا» (مرتاض 99).

فهو يصف (الحيز) بأنه (جغرافي)، أو يوظف بدلاً من ذلك مصطلح (المكان)، إذا كان حسب قراءته له، مجرد ديكور، أو خلفية تزيينية، لا علاقة له بمشاعر الشخصيات وأمزجتها، ولا شأن له في التأثير على مسار الأحداث في العمل السردى، لأنه «إذا كان للمكان حدود تحده، ونهاية ينتهي إليها، فإن الحيز لا حدود له ولا انتهاء، فهو المجال الفسيح الذي يتبارى في مضطربه كتاب الرواية، فيتعاملون معه بناءً على ما يودون من هذا التعامل، حيث يغتدي



الحيّز من بين مشكلات البناء الروائي كالزمان والشخصية واللغة» (مرتاض 125).

أما عند (سمر روجي الفيصل)، فالمكان الروائي، يعتبر عنصرًا ضمن مجموعة من عناصر أخرى، تتضافر في تشكيل (الفضاء الروائي)؛ لأن «دلالة الفضاء لا تقتصر على مجموع الأمكنة في الرواية، بل تتسع لتشمل الإيقاع المنظم للحوادث التي تقع في هذه الأمكنة، ولوجهات نظر الشخصيات فيها، ومن ثم يبدو مصطلح الفضاء أكثر شمولاً واتساعاً من مصطلح المكان» (الفيصل 72).

ونفهم من هذا السياق، أن (المكان الروائي) عنده، هو مطلق المكان، أو مفرد المكان، الذي يدخل ضمن مكونات الفضاء، ثم إن هذا «(الفضاء الروائي) لا يتشكل إذا لم تتضامن وجهات النظر، وشبكات العلاقات والرؤى مع بعضها بعضاً، تبعاً لارتباط هذا الفضاء بالحوادث والشخصيات» (الفيصل 89).

أي أنه لا يمكن الحديث عن (الفضاء)، إذا لم تكن له فاعلية في العمل الروائي، تحكم مسار الرواية، وتحسم وجهة الدلالة فيها.

وتحديد مصطلح (الفضاء الروائي)، بهذا الشكل، ليشمل كل عناصر السرد التي ذكرت، يجعله مفهوماً فضفاضاً رجراجاً، فهو بهذا يكون العمل الروائي بحذافيه، أو على الأقل الإطار، أو الإيقاع التنظيمي الذي تتناغم معه سيرورة العمل السرد، الأمر الذي يجعله لا يستقر ليخضع لإجراء معين، يمكّن من محاولة وضع اليد عليه، الأمر الذي يصعب من مقارنته على الأقل.

ولو نظرنا في كتاب (بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي) للناقد المغربي (حميد حميداني)، لوجدناه يقدم رؤية واضحة المعالم والحدود فيما يخص التفرقة بين مصطلحي (الفضاء)، و(المكان)، من حيث عموم الأول والخصوصية التي يمتاز بها الثاني. نوجزها في النقاط التالية:

- «مجموع الأمكنة هو ما يبدو منطقياً أن نطلق عليه اسم (فضاء الرواية).
- الفضاء أشمل وأوسع من المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء.
- إن الفضاء وفق هذا التحديد شمولي، إنه يشير إلى المسرح الروائي بكامله. والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقاً بمجال جزئي من مجالات الفضاء.
- يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني، في حين أن الفضاء يفترض دائماً تصور الحركة داخله، أي يفترض الاستمرارية الزمنية.
- لا يمكن تصور الفضاء الروائي دون تصور الحركة التي تجري فيه.
- وهذا يعني أن الفضاء مكون من الأحداث، ولكنه يؤطرها». (حميداني 63)

### مفهوم الفضاء الروائي وتمظهراته:

الفضاء الروائي هو أحد مكونات النص السرد، وعنصر من عناصره. وهو يقوم «في داخل أي نسيج نصي إبداعي بوظيفة لا تقل أهمية عن الوظائف التي تؤديها العناصر النصية الأخرى، وغالباً ما يستعمل للدلالة على المجال الطبيعي الذي تجري فيه وقائع القصة، وتتحرك فيه شخصياتها» (بشير 51)

والرواية فن يعنى بتقديم حياة الإنسان في إطار فني، بغض النظر عن أطوار هذه الحياة، أو أشكال تقديمها في قالب فني، يستوحي أدواته من واقع الإنسان، الذي تدرج حياته، كما هو معلوم بدهاءة، في إطار الزمان والمكان. وكما لا يسوغ، بدهاءة، لأي عمل روائي أن تنسج خيوطه في معزل عن الإنسان، بأحاسيسه ومشاعره، وبمعزل عن الزمان، سواء أكان عاماً، أو خاصاً، فإن المقام يفرض علينا أن نقول هنا بأنه «لا يجوز لأي عمل سردي أن يضطرب بمعزل عن (الخيّر) (الفضاء)، الذي هو، من هذا الاعتبار، عنصر مركزي في تشكيل العمل الروائي من حيث ربطه بالشخصية واللغة والحدث، ربطاً عضويّاً» (متراس 191).

و(الفضاء الروائي) بمفهومه البسيط، أو الأولي، يحيلنا إلى تصور ذهني عن المكان الذي تجري فيه الأحداث، وتضطرب فيه الشخصيات، فتصوير الأماكن بالكلمات في قصة ما، يختلف كل الاختلاف عن تصويرها تصويراً فوتوغرافياً، مهما بالغت تلك القصة في وصف الواقع والتحلي بالواقعية، لأن «مجرد خبرة الفنان بالمكان لا تجعله قادراً على إحيائه في كلمات، كما أن مجرد لصق لافتة بأن هذا المكان هو القاهرة، لا يكفي لبث الحياة في هذه التسمية». (القاسم 87).

وقد عبر (باشلار 212)، الفيلسوف الفرنسي (غاستون باشلار) (Gaston Bachelard)، عن هذا المعنى بعبارة لطيفة يقول فيها: «المكان الممسوك بواسطة الخيال، لن يظل مكاناً محايداً خاضعاً لقياسات وتقييم مساح الأراضي» وما نفهمه من هذه العبارة هنا أن المكان، أو صورته إذا دخلت منطقة الخيال، لن تبقى صورة هندسية صماء، بل تصوير صورة ممتزجة بالأحاسيس والمشاعر الذاتية التي تجعلها تنفلت وتتأبى على القياس الذي يعتمد على إحدى الحواس الخمس.

ففي اللغة الأمر منوط بالتصور الذهني، أو الصورة الذهنية التي تحدثها الكلمات لدى المتلقي، أو القارئ هذا التصور يتميز بالذاتية، كما هو معروف الأمر الذي يجعله يختلف من شخص لآخر، لذلك يسميه بعض النقاد (الفضاء المتخيل) الذي هو مجموع العناصر المكانية الواردة، بما هي أشكال طوبوغرافية وأعلام جغرافية، هي بمثابة نسق يعيد تشكيل الواقع، دون أن يكون نسخة مطابقة له.

«إن الفضاء يكشف، إذن، عن مقدار الاهتمام الذي يوليه الروائي للعالم ونوعية ذلك الاهتمام، فيمكن للنظر أن يتوقف عند الشيء الموصوف، أو يتعداه. فالوصف يترجم العلاقة الجوهرية، القائمة في صلب الرواية بين الإنسان، مؤلفاً كان، أو شخصية، والعالم المحيط، فهو يفر منه، أو يعوضه بآخر، أو يغوص فيه ليسبره، ويفهمه، أو يتعرف، من خلاله، إلى نفسه». (حزل 118).

أي أن ماهية الفضاء وتحديدته مرتبط بشكل أساس بطريقة إدراكنا للأمور، وما يدور في أذهاننا وفق ما اكتسبناه من خبرات في الحياة.

والحقيقة هي أن «قراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ. فمن اللحظة الأولى التي يفتح فيها القارئ الكتاب، ينتقل إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ» (Butor 48).

حيث «إن اللغة البانية في الخطاب الأدبي، لا تستمد سلطتها من سطوتها التقليدية، أو من نفوذها الوظيفي

وحسب، وإنما أيضًا بحضورها الذي يقتحم القارئ، ويملاً عليه جوارحه وطاقاته الفكرية والفنية والنفسية، ويلقي به في دنيا، غير الدنيا، وفي واقع، غير الواقع». (خرماش 98).

والفرقة ما بين الواقع المعطى، والواقع المتخيل لا يتنبه لها إلا الباحثون والنقاد المتخصصون، أو بعض الدارسين، الذين تدفعهم قراءاتهم المتميزة بشيء من الحصافة والتمحيص، والغوص في عمق النصوص، والتفطن لتقنياتها، بدافع من الممارسة النقدية التي تمرسوا عليها بقصد، أو من دون قصد، ولا يخفى على أي حبيب أن الممارسات الإبداعية والقرائية قد أسست لها منذ زمن نوعاً من الملكة، أو الكفاية الفنية، جعلت التنبه إلى هذه التفرقة عملية عقلية مجردة، حيث أصبح التداخل بين المتخيل والواقعي أمراً لا يسترعي الانتباه، ولا يثير كثيراً من الفضول. «ففي العمل الروائي المنجز يكون المتخيل هو واقع النص، أي أن المتخيل يتحول من كونه متخيلاً إلى واقع افتراضي في الرواية» (حسين 35).

لذلك فمن الفطنة والكياسة الفنية أن نعي في أذهاننا، بوجوب وضع تفرقة بين الفضاء الواقعي المحسوس وبين (الفضاء الروائي)، الذي تصنعه اللغة في الرواية، «هذه اللغة الإبداعية والمبدعة، هي التي تجذب القارئ أيضًا كي يتخلى طواعية عن واقعه الخاص، ويندمج بشغف في واقع النص التخيلي الذي تصنعه له الكلمات والجمل والعبارات» (خرماش 98).

إن التفرقة المراد إدراكها هنا بين (الفضاء المحسوس) وبين (الفضاء الروائي) تشبه التفرقة التي أصبحنا ندرکها الآن، ومن غير إشكال، أو عناء يذكر، بين الشخصية الحقيقية، والشخصية الروائية، التي توصف من قبل بعض النقاد بأنها مجرد شخصية ورقية من خلق مبدعها.

## الخاتمة

إن أصل الوضع اللغوي للفظ «فضاء» في اللغة العربية يشير إلى كل المدلولات في حقل الفراغ والخواء، هذا ما لمسناه في المعاجم العربية القديمة، وبعض الاستعمالات في كتب الأدب، ولم يكتسب الدلالة على مطلق المكان، أو المساحة من الأرض؛ إلا بفعل الثقافة مع الثقافة الغربية، وذلك من قبيل التوسع الدلالي.

ولقد بدأ تبلور مفهوم الفضاء كعنصر من عناصر النص السردي له أهميته في نظرية الرواية ونقدها، وتدرج تطور هذا المفهوم من الدلالة على مطلق المكان والخلفية، أو الوعاء الجغرافي الذي تجري فيه الأحداث، إلى مفهوم أكثر تعقيداً تجاوز فكرة المكان الجغرافي، بل وأصبح مصطلح المكان أحد العناصر الجزئية التي تشكل الفضاء ككل، بل أحد مظهراته، بجانب مظهرات أخرى لها أهميتها في بنية النص.

مع ذلك نجد فريقاً من النقاد والدارسين العرب لا يرحون يستعملون مصطلح (المكان) في مقابل، أو بالموازاة مع مصطلح (الفضاء)، وما يدل عليه من مفهوم.

هذا الخلط في التوظيف المصطلحي الذي يعتري هذا المفهوم في المدونة النقدية العربية، لا شك، يزول بالتراكم المعرفي، والاستعمال الأكاديمي الواعي بحديثاته وخطورته في بناء النص الروائي خاصة، والنص الأدبي عامة.

## المراجع:

### أولاً: المراجع العربية:

- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد. قرى الضيف. تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، ط1، منشورات أضواء السلف، الرياض، 1997.
- ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. المدهش. تحقيق: مروان قباني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
- ابن منظور، الإفريقي محمد بن مكرم. لسان العرب. ط1، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- أبو هيف، عبد الله. «جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر»، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، م. 27، ع. 1، 2005.
- الأنصاري، زكريا بن محمد. الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة. تحقيق: مازن المبارك، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1991.
- باشلار، غاستون. جمالية المكان. ترجمة: غالب هلسا، ط1، دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1980.
- بحرأوي، حسن. بنية الشكل الروائي. ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990.
- بشير، عبد العالي. تحليل الخطاب السردى والشعري. دار الغرب للنشر والتوزيع، دون تاريخ.
- بورايو، عبد الحميد. «المكان والزمان في الرواية الجزائرية». مجلة المجاهد، مارس 1987.
- البوعلي، آسيا. «أهمية المكان في النص الروائي». مجلة نزوى، ع. 22، 2000.
- تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب. ترجمة: منذر عياشي، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1411هـ/ 1991م.
- الجمحي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء. تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، دون تاريخ.
- حسين، سليمان. مضمرة النص والخطاب. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.
- الرازي، محمد بن أبي بكر. مختار الصحاح. تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995.
- شريط أحمد. «بنية الفضاء في رواية غداً يوم جديد». مجلة الثقافة، ع. 115، 1997.
- \_\_\_\_\_ تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998.
- طالب، أحمد. «السرد القصصي وجماليات المكان». مجلة الموقف الأدبي، ع. 403، السنة الرابعة، 2004.
- عزّام، محمد. شعرية الخطاب السردى. دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
- عزام، محمد. فضاء النص الروائي: مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان. ط1، دار الحوار، اللاذقية، 1996.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دون تاريخ.
- فريجات، عادل. مرايا الرواية: دراسة تطبيقية في الفن الروائي. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
- الفيصل، سمر روجي. الرواية العربية البناء والرؤيا: مقاربات نقدية. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
- القاسم، سيزا. بناء الرواية: دراسة مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ. المكتبة الوطنية الجزائرية، الهيئة المصرية للكتاب، 1984.

- القلقشندي، أحمد بن علي. *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. تحقيق: يوسف علي طويل، ط1، دار الفكر، دمشق، 1987.
- حميداني، حميد. *بنية النص السردى من منظور النقد الروائي*. ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991.
- مجموعة من المؤلفين. *الفضاء الروائي*. ترجمة: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
- مرتاض، عبد الملك. «في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد». *عالم المعرفة*، الكويت، 1998.
- \_\_\_\_\_ *التحليل السيميائي للخطاب الشعري*. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
- \_\_\_\_\_ *القصة الجزائرية المعاصرة*. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- \_\_\_\_\_ *تحليل الخطاب السردى معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق*، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- \_\_\_\_\_ *جمالية الحيز في المعلقات*. دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.
- \_\_\_\_\_ *دراسة سيميائية تفكيكية*. ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
- \_\_\_\_\_ *في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد*. دار الغرب للنشر والتوزيع، دون تاريخ.
- موني، حبيب. *فلسفة المكان في الشعر العربي: قراءة موضوعاتية جمالية*. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

#### ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Bourneuf, Roland. *L'organisation de l'espace dans le roman*. Études littéraires, Québec, Les Presses de l'Université Laval, avril 1970.
- Butor, Michel. *L'espace du roman un essai sur le roman*. Gallimard, Paris, 1969.
- Goldstein, Jean- Pierre. *Pour lire le roman*. Bruxelles, Duculot, 1983.
- Mitterand, Henri. *Le lieu et le sens: l'espace parisien dans Ferragus de Balzac in Le Discours du roman*, Paris, Puf, 1980.
- Robert, Paul. *Société du nouveau littré 'Le Robert'*. Paris Xle - nouveau tirage- 1983.